

الفكر اللساني عند الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح من خلال مجلة اللسانيات

أ/ منصوري ميلود

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة وهران - السانبة -

Résumé :

Cet article exhibe la pensée linguistique du professeur Abderrahmane hadj -salah à travers la revue Al-lisaniyyat ;et montre sa solidité scientifique , et ses efforts pour identifier l'héritage linguistique arabe , et son éclaircissement des notions de la théorie Khalilienne , et ses recherches pour la développer et rendre plus utile .

الملخص:

يبرز هذا المقال الفكر اللساني الذي تميّز به الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح من خلال مجلة اللسانيات, ومكانته العلمية وجهوده في التعريف بالتراث اللغوي الأصيل للنحاة العرب القدامى, ومدى إعجابه بأفكارهم , وتبنيه لبعض مصطلحاتهم, وتوضيحه لمبادئ النظرية الخليلية التي سعى لتطويرها واستثمارها .

الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح علم من أعلام الفكر اللساني في الجزائر و في الوطن العربي . له اطلاع واسع على الفكر اللغوي عند العرب وعند الغربيين ، ويحتل مكانة مرموقة عند طلابه في الجزائر وفي المشرق العربي . يجل العلماء القدماء ويعجب بأرائهم . قال أحد طلابه وهو يتحدث عن الآلات التي أهداها علم الفيزياء إلى علم اللغة : « وإقرارا بالحق ومن باب عزو الفضل إلى ذويه يحسن بنا هاهنا أن ننوه بالبحوث الصوتية المخبرية التي اضطلع بها أستاذنا الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح ، وعرض فيها على محك هذه الآلات ما جاء في كتب علمائنا الأقدمين ، ولاسيما ما رواه سيويه عن شيخه الخليل بن أحمد في مخارج الحروف وصفاتها، فتبين له أن كثيرا من آرائهم بلغت من الحصافة ، وأن غرائزهم أوتيت من الرهافة ما جعل نتائجهم تقارب النتائج التي توصلت إليها الآلات » (1)

لقد تبين له أن الخليل بن أحمد - وهو المؤسس الحقيقي للنظرية اللغوية العربية - قد أدرك بفكره النير أن اللغة تتألف من مجموع المفردات ، والمفردات إنما تتألف من أجزاء ، وهذه الأجزاء هي الحروف ، فلا بد إذن لمن يريد أن يدرس اللغة ، وينفهم طبيعتها أن يبدأ بدراسة الحروف . والحروف ينتجها جهاز النطق ، وجهاز النطق عند الإنسان واحد . فكان ترتيبه للحروف بحسب مخارجها من الحلق إلى الشفتين ترتيبا مبني على أساس علمي واضح . « فوجد العين أدخل الحروف في الحلق ، فجعلها أول الكتاب ، ثم ما قرب منها ، الأرفع فالأرفع ، حتى أتى على آخرها وهو الميم . » (2) ويدل على مثل هذه الفكرة في ذهنه ما حكاه الليث بن المظفر عنه قال : « كنت أسير إلى الخليل ، فقال لي يوما لو أن إنسانا قصد وألف حروف ألف وباء وطاء وثاء على ما أمثله لاستوعب في ذلك جميع كلام العرب ، فتهيا له أصل لا يخرج عنه شيء منه البتة . قال: فقلت له وكيف يكون ذلك ؟ قال يؤلفه على الثلاثي والرباعي والخماسي الخ .. » (3)

كان الخليل إذا أراد أن يحدد مرتكز الصوت أو مخرجه فتح فاه بألف ثم أظهر الحرف نحو أب أح أع ، واستطاع بهذه الطريقة البسيطة أن يحصل على الكثير من النتائج العلمية الدقيقة التي انتهى إليها المحدثون بالاستعانة بتطور العلم والآلة . يقول الدكتور مهدي المخزومي: « ومن الطريف حقا أن نرى مصطلحات علم الأصوات

الحديث تتفق أكثرها مع المصطلحات التي وضعها الخليل ، وهي قريبة منها كل القرب ، بل كان كثير منها يشير إلى أنها مصطلحات الخليل ترجمت ترجمة تكاد تكون (حرفية).

فمصطلح (المجهور) يقابله بالإنكليزية مثلا مصطلح voiced

ومصطلح (المهموس) يقابله مصطلح Unvoiced أو Voiceless

ومصطلح (الشديد) يقابله مصطلح Plosive أو Stop

ومصطلح (الرّخو) يقابله مصطلح Fricative أو Continuant

ومصطلح (المكرر) وهو الرّاء يقابله مصطلح Rolled أو Trilled⁴

هذا السبق في وضع المصطلحات العلمية ، ووصف الحروف وصفا دقيقا وتحديد

مخارجها جعل الدكتور الحاج صالح يعجب بفكر الخليل وبآراء من سار على منهاجه من

القدماء ، فظهر إعجابه بهم في محاضراته و في المقالات اللغوية التي نشرها بعنوان

« مدخل إلى علم اللسان الحديث » في مجلة اللسانيات وفي أعدادها الصادرة بين

سنة 1971 وسنة 1974 بمعهد العلوم اللسانية والصوتية التابع لجامعة الجزائر تحت

إشرافه . و في النظرية الخيلية التي طورها فيما بعد⁵

و ظهر هذا الإعجاب في عدة صور منها :

1- أنه تبنى بعض مصطلحاتهم كمصطلح (علم اللسان) الذي فضله على

المصطلحات التي ظهرت عند العرب في العصر الحديث . فهم حين اتصلوا بالدراسات

اللغوية الغربية أطلقوا عليها أول الأمر « فقه اللغة» لما تبادر إلى أذهانهم من المناسبة

بين المدلول لكلمة « فقه » (العلم بالشيء و التعمق في فهمه) و بين ما هو مطلوب

في الـ: linguistics إذ هو بحث في أسرار اللسان . ثم « أطلقوا عليها طائفة من

الأسماء مثل علم اللغة ، الألسنية ، اللسانيات ، اللسانيات ، اللغويات الحديثة ، الدراسات

اللغوية » 6

وفضل كلمة(اللسان) على لفظة (اللغة) لأن « لفظة اللغة كانت تطلق عند

النحاة و اللغويين على عدة معان زيادة على ما يفهم من تحديد ابن جني لها و هو اللسان

بوجه عام » 7

ولأن « المفهوم العام الذي عرف للفظ اللغة ما عرف في الحقيقة إلا بعد نهاية

القرن الثاني الهجري ، وأن الأصل في الدلالة عليه هو ما استعمله القرآن الكريم (لا

توجد فيه كلمة أخرى لهذا المدلول غير اللسان () « 6. قال الله تعالى : « و ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »⁸ وقال تعالى: « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذين يلدنون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين »⁹

وفضل مصطلح (علم اللسان) على غيره لأن النحاة وغيرهم من العلماء العرب يطلقون غالبا على مفهوم الدراسة العلمية لظاهرة اللسان بصفة عامة لفظ « علم اللسان » . يقول أبو نصر الفارابي في كتاب « إحصاء العلوم » : « علم اللسان في الجملة ضربان أحدهما حفظ الألفاظ الدالة عند أمة ما , وعلم ما يدل عليه شيء منها والثاني علم قوانين تلك الألفاظ ».¹⁰ ويبرر صلاحية هذا المصطلح بقوله : «وهناك شيء آخر أيضا يثبت اعتقادنا بصلاحية هذا اللفظ للدلالة على علم اللسان الحديث وذلك هو الترجمة اللاتينية لكتاب إحصاء العلوم التي قام بها GIRARDO Cremonensi في القرن الثاني عشر الميلادي , فقد جاءت فيها هذه العبارة scientia lingue مقابلة للفظ علم اللسان , وقد عرفنا أن هذه العبارة هي التي يحد بها الآن مضمون ال linguistics في جميع الكتب التي تعالج هذه المادة وهي the science of language وما يمثلها في اللغات الأوروبية الأخرى . ثم إن هذه التسمية بهذا المفهوم الذي وجده الأوروبيون في كتاب الفارابي لم يسبق مجيئها فيما قبل ذلك التاريخ في نص يوناني أو لاتيني أو أي نص آخر , وبما أن هذه الموضوعات العامة التي ذكرها الفارابي كأقسام هامة لعلم اللسان هي التي سيعالجها ال linguistics في عصرنا الحاضر فلا نظن أنه يوجد لفظ أصلح لتأدية المفهوم الحديث من هذا الذي انطلق منه أصحاب ال linguistics أنفسهم »¹¹

وفي تبريره هذا إثبات لسبق العلماء العرب في وضع مصطلح علم اللسان وفي تحديد موضوعاته وأقسامه .

ومن تبنيه لمصطلحاتهم أيضا أنه اختار مصطلح (البُنْويّة) المنسوب إلى (البنية) وفضله على كلمة (بنوية) الشائعة عند اللغويين العرب المحدثين لوصف مناهج المدارس الملقبة ب Structuraliste ووضّح سبب اختياره لهذه اللفظة بقوله: « اتبعنا في هذه النسبة رأي يونس بن حبيب النحوي الذي يقول في طبية طبوي وهو أخف من طببيّ و وجّهه الخليل »¹²

2 — أشاد بجهودهم اللغوية ورأى أن جل ما أثبتوه قد أقره العلم الحديث بالاختبار في المختبرات والاستدلال الحاسم وأن نظرة الخليل وسيبويه إلى اللسان هي أقرب إلى المفهوم العلمي الحديث ، فيقول متحدثاً عن العلامة العدمية : « هي عند العرب أصل مهم من أصولها المنهجية لا بالنسبة إلى اللغة فقط بل بالنسبة إلى جميع العلوم الدقيقة والتجريبية ، وهي مفهوم رياضي ونرجح أن الخليل هو أول من استخرجه من مفهوم الصفر بعد أن أدرك دوره في علم العدد فطبقه على علوم العربية وبالخصوص النحو و العروض »¹¹

ورأى أن العرب لم يكتفوا في بناء أصول علومهم على استقراء النصوص المكتوبة مثل القرآن الكريم بل تعدوا ذلك إلى ما يمكن مشاهدته مباشرة مثل قراءات القرآن وإنشاد الشعر الجاهلي والشعر الأموي وبالخصوص كلام فصحاء العرب ، وأن هذا ليس من الفيلولوجية الغربية التي تكتفي بدراسة النصوص القديمة ، وما قام به العرب القدماء من دراسة للأحداث اللغوية على ما هي عليه في زمان ظهورها هو ما يقوم به علماء

اللسانيات اليوم لمعرفة أسرار اللغات¹³

قد ميز العرب بين المعنى والفائدة فقد قالوا بأن لأبد لكل كلام غير محال من معنى يدل عليه ولكنه وإن كان ينبغي أن يفيد في الأصل فقد يكون غير مفيد أي غير حامل لفائدة = لخبر يجهله السامع وذلك مثل « النار المحرقة » (مثال مشهور في النحو العربي) فإن قيل هذا لمن اختبر خاصية النار المحرقة فإن هذا الكلام وإن كان ذا معنى إلا أنه لا يأتي بشيء جديد بالنسبة إلى المخاطب . ولهذا أهمية عظيمة جداً لأنه الأساس الذي بنيت عليه نظرية الإفادة الحديثة «¹⁴ théorie de l'information

وهو يتحدث عن الحروف الصوتية و الحروف الخطية يجري مقارنة بين المصطلحين عند الأوروبيين وعند العرب فيقول « أما علماء أوربا قديماً فكانوا يستعملون لفظتين مختلفتين كما في الفرنسية Lettre الحرف الصوتي و caractère الحرف الخطي ولما صارت الأولى تلتبس في الاستعمال بالثانية وضعوا كلمة جديدة لمعنى الأولى فقالوا phonème عوض Lettre . أما العرب قديماً فما كان يشتبه عليهم الأمر ، وكلما أراد اللغوي منهم الجانب الخطي نبه على ذلك وقال مثلاً أما صورة الحرف في الخط ... أو

هذا موجود لفظا وخطا ، ولهم تمييز آخر فقد استعملوا للدلالة على اسم الحرف كالباء والميم والياء مثلا لفظة الهجاء »¹⁵

ثم يتحدث عن علاقة الاسم بالمسمى عند فلاسفة اليونان . أهي طبيعية النشأة أم هي صادرة عن تواطؤ الناس؟ فيقول : « ونجد عند العرب جدالا شبيها بهذا فقد زعم عباد بن سليمان الصيمري المعتزلي (المتوفى في 250 هـ) أنه لا بد من مناسبة طبيعية بين اللفظ و مدلوله وإلا كان تخصيص الاسم المعين بالمسمى المعين ترجيحا من غير مرجح (يسمى الآن هذا المفهوم الأخير بالنسبة إلى المناسبة بين الدال و المدلول باللغة الفرنسية Arbitraire du signe ومعناه اعتباطية الدلالة الوضعية) . وجدال آخر قريب منه مما طرحه اليونانيون هو الذي دار منذ أواخر القرن الثاني الهجري حول مسألة : هل اللغة الهام وتوقيف من الله سبحانه أم تواضع و اصطلاح؟ واستمر هذا الجدل مدة طويلة بعد ذلك الزمان »¹⁶

وعندما ينتقل إلى الحديث عن عصر الدراسات المقارنة و التاريخية في القرن التاسع عشر في أوروبا يشير إلى فكرة التطور اللغوي عند العرب قائلا : « أما فكرة التطور كتحول يعتري اللغات عبر الزمان فنجدها عند النحاة الأوليين من طبقة الخليل ومن جاء بعده . فكثيرا ما كان الخليل يفسر ظواهر اللغة بالرجوع إلى حالة أقدم يفترضها (بمقارنة في باطن اللغة وهذا ما يفعله الآن أهل اللسانيات) وذلك كتفسيره لكلمتي (لن) و(ليس) بأنهما مركبتان من مادتين التصقتا فصارتا كلمة واحدة بكثرة الاستعمال ، وفهمه غيره على أنه تفسير بنوي فلم يصححه وهذا طبيعي لأن لهما تفسيراً بنويا محضاً غير هذا ، إنما قول الخليل يمكن أن يصحح على أساس التأصيل الزماني »¹⁷ وقد أيد برجستراسر - وهو من علماء العصر الحديث - ما ذهب إليه الخليل في كون (ليس) مركبة فقال : « اشتقت من (لا) أدوات أخرى للنفي لا توجد في سائر اللغات السامية إلا (ليس) فيقابلها في الآرامية . lait وهي مركبة من لا واسم معناه الوجود يحتمل أن يكون لفظه القديم ; iitai أو قريبا من ذلك ، وهو ايس ies في العبرية ، وايتي itai في الآرامية العتيقة ، ويقاربها في الأكادية فعل ، وهو isu ايسو ، أي بملك الشيء ، وهو له ، فمعنى lait لا يوجد ، وهذا هو معنى (ليس) الأصلي »¹⁸

ويقارن ما قاله العرب قديما بما ذهب إليه الغربيون في العصر الحديث ، من ذلك مقارنته بين قول هومبولت « ليس اللفظ نسخة للشيء (المدلول عليه) بل للصورة التي

أثارها هذا الشيء في النفس « وقول السيوطي في المزهري » إن إطلاق اللفظ دائر مع المعاني الذهنية دون الخارجية فدل على أن الوضع للمعنى الذهني لا الخارجي »¹⁹

كما نجد يعقوب على ما قاله دي سوسور عن اللسان و الكلام بقوله : «
ويجب أن نلاحظ أيضا أن النحاة العرب كانوا يعبرون عن هذين المفهومين لا باللسان أو اللغة في مقابل الكلام بل بكلمة وضع في مقابل الاستعمال أو التأدية أو الأداء . وهم أول من بين الفروق بينهما ، وكانوا بنوا جميع تحليلاتهم عليها. »²⁰

ويقارن بين ما لاحظته المحدثون من اكتساب الطفل للمهارات المختلفة وما لاحظته علماءنا القدماء في اكتساب الفرد للغة العرب فيقول : « وقد لاحظ هاهنا الباحثون شيئا مهما جدا وهو أن الطفل لا يكتسب هذه المهارة التركيبية بحكايته لما يسمعه من الكلم و الجمل نفسها بل من حكاية العمليات المحدثه لها أي اكتساب الأنماط والمثل لا ذوات الألفاظ . وهذا قد لاحظته علماءنا . فقد قال ابن جني عن النحو : انه انتحاء سمت كلام العرب. »²¹

3 - دفاعه عنهم . لا يخفي الدكتور الحاج صالح إعجابه الكبير بالنحاة العرب القدماء الذين في مقدمتهم الخليل وسيبويه وأبو علي الفارسي و ابن جني . ويعتبر نفسه من المنتسبين إلى النظرية الخليلية والمدافعين عنها . فأولئك يتحرون الدقة العلمية ولا يميلون في الوصول إلى الحقائق العلمية إلى ما يمليه عليهم الهوى.

ولهذا نجده يبادر إلى الدفاع عنهم وتفنيد ما نقله جورج مونان عن بعض المستشرقين من أن « النحاة العرب يجعلون من العربية أم اللغات وأنها لغة أهل الجنة بل لغة الله » يقول : « أما القول الأول والثاني فما رأينا أحدا من النحاة الأولين الحقيقيين المجتهدين يقوله أو يجزم به بل وجدناه عند بعض المؤرخين والمفسرين ممن كان يجمع كل ما يسمعه بدون أي نقد > مثل ابن اسحاق < فاعتمدوا الأساطير الفلكلورية التي كان يروجها القصاص ... أما النحاة و اللغويون فكانوا يمسكون عن ذكر مثل هذه الأشياء وقصارى ما قال البعض منهم هو أن > أول من وفق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل < والمراد بالمبينة هذه التي نزل بها القرآن أما عربية القبائل البائدة مثل جرهم فكانوا يقولون إنها عربية أخرى غير كلامنا هذا ... أما القول الثالث فهو شنيع وأشنع من هذا أن ينسب إلى علماء العرب »²²

ويزيد على ذلك أن للعرب فضلا على الأوروبيين من ذلك أن المحدثين من الغربيين « حكموا على العربية بأن ليس لكلماتها أصول في اصطلاحهم .

الأصل = الجذر (racine , root , wurzel) مع أن هذا المفهوم نفسه قد أخذوه عن العرب عند اطلاعهم على ما ترجم في القرن 16 من كتب النحو قبل أن يطلعوا على ما يشبه ذلك في نظرية الهند « وينقل قولاً لجورج مونان (Georges Mounin) يرى فيه أن اللسانيات « نشأت في القرن الخامس قبل الميلاد أو في سنة 1816 مع بوب (Bopp) أو في سنة 1916 مع سوسور أو في سنة 1926 مع تروباتسكوي (Troubetzkoy) أو في سنة 1956 مع تشومسكي ».²³

وبعلق عليه بقوله : « إن هذا القول لوجيه جدا ولا ينقصه إلا نظرة الباحث الذي اطلع على ما أنتجه العلماء العرب القدامى في هذا الميدان إذ ربما تقضي نظرتة إلى اللسانيات واطلاعه على علوم العربية إلى أن يجعل مبدأ انطلاق الدراسة العلمية للسان في القرن الثاني للهجرة و بالأصح في فترة ما بين 100 و 175 بعد الهجرة (و 175 هي سنة وفاة الخليل بن أحمد) ولكن هذه وجهة نظر ليس الآ... »²⁴

وفي الخلاصة نجد أن الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح قد بنى فكره اللساني على التراث اللغوي العربي القديم ، والتراث اللساني الإنساني القديم ، والنظريات اللسانية الغربية الحديثة ، وأشاد بجهود علمائنا الأفاضل أمثال الخليل وسيبويه وأبي علي الفارسي وابن جني ، وما تركوه لنا من أفكار نيرة مازالت ماثلة للعيان إلي اليوم .

الهوامش

- 1 - الدكتور غازي مختار طليمات ، في علم اللغة ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر دمشق الطبعة الثانية 2000 م ص 34
- 2 - الدكتور أحمد محمد قدور ، أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين . الطبعة الأولى
- 1419 هـ - 1998 مدار الفكر دمشق سورية ص 85 .
- 3 - فهرست ابن النديم المطبعة الرحمانية بمصر ص 64
- 4 - الدكتور مهدي المخزومي ، عبقرية من البصرة ، دار الرائد العربي ، بيروت - لبنان - الطبعة الثانية 1406 هـ - 1986 م

- 5 - ظهرت هذه لنظرية سنة 1979 في أطروحته التي نال بها شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون ببريس والتي كانت بعنوان : linguistique arabe et linguistique générale essai de méthodologie et d'èpistemologie du ilm al
- Arrabiyya Thèse dactylographiée Parie Sorbonne 1979 - وقد أعاد صياغتها الدكتور الحاج صالح في إطار منطقي رياضي حديث . وتدعى اليوم النظرية الخليلية الحديثة La Thèorie nè- Khaliliènne , ويستثمرها فريق من الباحثين في مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللغة العربية بالجزائر .
- تسمح هذه النظرية بتصور نظام تحليل صرفي تفريعي , وتحليل تركيبى , يركز على ما يسمى بالحدود الإجرائية ومن مفاهيمها الكبرى ما يأتي :
- « 1- مفهوم المدونة المفتوحة : ان المعطيات التي يتحصل عليها اللغوي لا تختلف إطلاقا عن المعطيات التي يتحصل عليها العالم البيولوجي أو الفيزيائي , ففي جميع الحالات تصح المعطيات بكونها قابلة للتحقيق (بالرجوع إلي الواقع)
- 2 - إقامة الفرق بين البنية النحوية وبين وضع اللغة (الكود) من جهة وبين استعمال المستعملين لهما في أفعال خطابية معينة من جهة أخرى .
- 3 - مفهوم البنية في هذه النظرية يتجاوز مفهوم البنية في المذهب البنوي الذي ظهر بعد سوسير : فان البنية ههنا هي نتيجة لتركيب بين الفئة والترتيب (بين أفراد جنس ونظرائها من أجناس أخرى حسب تعبير القدامى) « مجلة اللسانيات العدد الثامن سنة 2003 ص12 من القسم الفرنسي الانجليزي .
- تقسّم هذه النظرية اللغة العربية إلى ثلاثة مستويات :
- مستوى أدنى هو الكلمة , وتتصل بالأصل (الجذر) والصيغة (الوزن)
- مستوى وسيط هو الوحدة المعجمية (la lexie) وهي إما اسمية (nominale) نحو < كتاب سيبويه> . لأن المضاف والمضاف إليه بمنزلة الكلمة الواحدة (وهو رأي سيبويه) . و إما فعلية (verbale) نحو < كتبت > لاتصال الضمير بالفعل , وتعذر انعزاله عنه (insécable) .

- مستوى أعلى هو الوحدة التركيبية (la tectonie) ويشمل الجملتين الاسمية والفعلية .
 ينظر مجلة اللسانيات العدد الثامن ص 37-39 .
- 6 الدكتور تمام حسان , الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب .نحو.
 فقه لغة .بلاغة .الهيئة المصرية العامة للكتاب 1982ص271
- 7 مجلة اللسانيات المجلد الأول سنة 1971 ص51
- 8 سورة إبراهيم الآية 4
- 9 سورة النحل الآية 103
- 10 مجلة اللسانيات المجلد الأول سنة 1971 ص 52
- 11 نفسه ص.55
- 12 نفسه ص 38
- 13 نفسه ص 48
- 14 نفسه ص 65
- 15 نفسه ص 26
- 16 نفسه ص 45
- 17 مجلة اللسانيات المجلد الثاني سنة 1972 ص11
- 18 برجستراسر التطور النحوي للغة العربية ص 111
- 19 مجلة اللسانيات المجلد الثاني سنة 1972 ص25
- 20 نفسه ص43
- 21 مجلة اللسانيات العدد الرابع 1973 -1974 ص56-57
- 22 مجلة اللسانيات المجلد الثاني 1972 ص5
- 23 مجلة اللسانيات المجلد الأول سنة 1971 ص24 عن كتاب clefs pour la linguistique ط باريس 1968 ص23
- 24 نفسه ص24